منال وحسين
(5)



الكاتبة الراحلة



أماني العشماوي

(رحمها الله)

منال وحسين (5)

نحن والجيران

أماني العشماوي

أنا منالُ، وأخي حُسَينٌ يصغُرني بسنَتَين، لذلك، أنا أعتني به وأرعاه طولَ الْوقتِ، فأنا الأختُ الكُبْرى، وإن كان هو في غايةِ الذَّكاءِ، فكثيرًا ما يقترِحُ علَيَّ أنواعًا مِنَ الألعابِ تَنتَهي بأخطاءٍ خَطيرَةٍ.. كنتُ أَعترفُ بها سريعًا لأبي وأمي، لكنّ أخي حسينًا يُفَكِّرُ دائمًا في فِكرَةٍ تُجَنِّبُنا الْعُقوبَةَ، بنفسِ السُّهولَةِ التي يَقْتَرِحُ بها الألعابَ الْخَطِرَةَ.

نَزلنا من حافِلَةِ المدرسَةِ أمامَ بيتِنا، أنا وأخي حُسَينٌ، وأولادُ جيرانِنا، وصَعَدْنا الدَّرَجاتِ العشرَ الأولى التي تُوَصِّلُنا للطابقِ الأرضِيِّ، ومنها إلى الطابِقِ الذي نسكُنُ فيه، وانطلقَ نهلةُ

وطارقٌ إلى شقَّتِهِم المقابِلَةِ لشَقَّتِنا، فمَالَ نحوي حُسين هامِسًا: "انتهي من دروسِكِ ومذاكَرَتِك بسرعَةٍ.. لنتمكَّنَ من النُّزولِ في الوقتِ المُناسِبِ، فقد تبرعتُ اليومَ بمجهودِكِ أنتِ أيضًا".

كنتُ قد فَتَحْتُ بابَ بيتِنا ودخلتُ، فتوقَفَ حُسين عن الكلامِ، وارتفعَ صَوْتَينا قائلَيْنِ: "السلامُ عَلَيْكُم".

ردَّ أبي وأمي التحيةَ من غُرفَةِ الجُلوسِ، وأَسرَعْنا لتَبْديلِ ملابِسَنا والوضوءِ والصلاةِ، ثم تَغَدَّينا مع والَدَيْنا.. وانطلقنا بحماسٍ إلى غُرفَةِ المكتَبِ لأداءِ الواجباتِ ومُذاكرةِ الدُّروسِ.

هذا هو أخي حُسَيْنٌ، وهذه شَخْصِيَّتُهُ.. فقد تَبَرَّعَ بِمَجْهوداتي دونَ أن يَستأذِنَني، فهو مُتأكَّدٌ أنني لن أتخلَى عن مُساعَدَتِهِ.

بدأت قصةُ هذه المساعدات قبلَ يَوْمَيْنِ، أي يومَ الثلاثاءِ، عندما كُنا نلعبُ مع نهلةَ وطارقٍ في مدْخَلِ العمارَةِ، وفجأةً اختفى أخي حُسَيْنٌ دون أن نَشْعُرَ به.. ثم عادَ مع أَذانِ المَغْرِبِ، لندخُلَ معًا إلى بَيتِنا كأنه لم يَغِبْ عنا.

وفي اليومِ التالي، أي يومُ الأربعاء، بينما كنا نلعبُ، كالعادَةِ في مَدْخَلِ العمارَةِ، استعَدَّ حُسينٌ للاختفاءِ، فدنا مني وهمسَ لي: "ساكونُ عِنْدَ أُمِّ شَريفٍ لأُساعِدَها".. ثم خَرَجَ من بابِ العِمارَةِ. وأُمُّ شَريفٍ هي زَوْجَةُ عَمِّ محمود حارسِ العمارَةِ التي يَفْصِلُها عن عمارتِنا عمارتانِ. وابنُها شَريف، هو ولد مهذب، في سنِّ حُسين أخي، كما أنه أعزُّ أصدقائِهِ، وكثيرًا ما جاءَ يَلْعَبُ معنا نحنُ وأولادُ جيرانُنا.

عندما دخلنا أَسِرَّتَنا لننامَ، قالَ لي حُسينٌ إن عَمَّ محمودًا في المُستشفى، ولابد أن تَذْهَبَ أُمُّ شَريفٍ لزِيارَتِهِ في الوقتِ المُحَدَّدِ للزيارَةِ، ولابدَ أن تَتْرُكَ طِفلَها وطِفْلَتَها الصغيرَيْنِ في رِعايَةِ شَريفٍ، لذلك يَذْهَبُ حُسينٌ أخي يوميًا في وقتِ الزِّيارِةِ لمساعَدَةِ شَريفٍ في رِعايَةِ الطِفْلَيْنِ.

وفي اليومِ الثالِثِ، الخَميس، تَبَرَّعَ حُسينٌ بمجهودي لمساعَدَةِ شَريفٍ.. وهكذا ذهبتُ معه أنا الأُخرى إلى بيتِ عَمِّ محمودٍ للمساعَدَةِ.

كانَ عمٌّ محمودٌ يَسْكُنُ مع أَهْلِهِ في حُجْرَةٍ لها بابٌ يؤدي إلى مدخَلِ العمارَةِ، وبابٌ آخرُ من الجِهَةِ المُقابِلَةِ، وينفتِحُ على فناءٍ صَغيرٍ يُعْتَبَرُ امتدادًا لبيتِ عمِّ محمودٍ.

في الفِناءِ أُرْجوحَةٌ مُعَلَّقَةٌ حِبالُها على عارِضَةٍ خَشَبِيَّةٍ، ومَقْعَدُها عبارَةٌ عن كاوِتْشِ عَجَلَةِ سَيّارَةٍ.

وفي الحالِ، اندَمَجْتُ في مشروعِ المُساعَدَةِ، فأخذْتُ التَّعليماتِ من أُم شَريف، وحَمَلْتُ طِفْلَتَها الصَغيرَةَ وجَلَسْتُ على سُلَّمِ الفِناءِ لأُطْعِمَها وأُغَنّي لها. بينما حملَ حُسين الطِّفْلَ الصَّغيرَ وأَجْلَسَهُ على الأُرْجوحَةِ، وراحَ يَدْفَعُهُ بينما هو يَسْتَرْجِعُ الدُّروسَ مع شَريف.. ثم قامَ شَريف لِيَكْنِسَ الحُجرةَ ويُحَمِّمَ أَخَوَيْهِ ويُبَدِّلَ ثِيابَهما، فتقدمتُ أنا وحُسين للمُساعَدَةِ، فَحَمَّمْتُ الطِّفلَةَ وبَدَّلْتُ ثِيابَها، بينما ساعدَ حُسين في تَحْميمِ الطِّفْلِ

وتَبْديلِ ثِيابِهُ.. ثم عدنا إلى ما كُنا نَفْعَلُهُ وقد تَبَلَّلَت ثِيابُنا تمامًا، فَجَلَسْتُ على السُّلَّمِ، وحملْتُ الطِّفلَةَ ورُحْتُ أُغَنّي لها كي تنامَ، وأعادَ حُسين الطِّفْلَ إلى الأُرْجوحَةِ، لعله يَنامُ هو الآخرُ. بينما راحَ شَريف يَمْسَحُ الحُجرَةَ ويُجَفِّفُها بعدما حَمَّمْنا الأَطْفالَ.

لم نَنْتَبِهْ لأذانِ المَغْرِبِ، ولا إلى زَحْفِ الظَّلامِ على الكَوْنِ. وفَجْأَةً، سَمِعْنا صَوْتَ أَبي يُنادي: "مَنال، حُسين".

تَبادَلْنا النَظَراتِ دونَ أن نَتَحَرَّكَ، وبعدَ لَحظاتٍ، وَجَدْنا أَبي يُطِلُّ من بابِ الحُجْرَةِ المُؤدي إلى الفِناءِ.. دون أن يَنْطِقَ.

لم يكُن أبي في حاجَةٍ لِقَوْلِ أيِّ شيءٍ.. فَحَمَلْتُ الطِّفْلَةَ وأَرْقَدتها على السَّريرِ، بينما حَمل حُسينٌ الطِّفْلَ وَوَضَعَهُ بِجِوارِها على نَفْسِ السَّريرِ، وَوَقَفَ شَريفٌ أَمامَ أَبي يقولُ له: "تَفَضَّلَ بالجُلوسِ.. تَفَضَّلَ يا عَمّي".

رَبَّتَ أَبي على رأسِ شَريفٍ وقالَ له: "شُكرًا يا بُنَيَّ، لكن الوقت قد تَأَخَّرَ، ولابدَ من العودَةِ إلى البيتِ".

وَقَفْتُ أنا وأخي ساكِنَيْنِ أمامَ أبي، نُحاوِلُ إخْفاءَ ثِيابِنا المُبَلَّلَةِ، لكن أبي لم يَنْظُرْ نَحْوَنا، وإنما اسْتَدارَ وعادَ إلى بَيْتِنا.. وخرجَ حُسَيْنٌ وراءَهُ ركضًا دون أن ينطقَ بكلمةٍ، بينما عُدتُ أنا إلى الفناءِ لآخُذَ جَوْرَبِي الذي خلعتُهُ عندما تَبَلَّلَ.. فتناوَلْتُهُ وأنا أقولُ لشَريفٍ: "لن نَحْضُرَ مرةً أُخرَى، فتعالَ غدًا إلى بيتِنا مع أُخْتِكَ وأخيكَ لِنَعْتَني بِهِما عندنا". ثُمَّ انْطَلَقْتُ جَرْيًا لِلّحاقِ بأبي وأخي.

عندَ البيتِ، رأينا نَهْلَةَ وطَارِقا يَنْتَظِرانِ على بابِ بَيْتِهِم، وقد بدا عليهِما الأَسَفُ والنَّدَمُ.. فَفَهِمْتُ أنهما سَأَلا أبوَيْنا عَنا، فَتَسَبَّبا في اكْتِشافِ أَمْرِنا. فابْتَسَمْتُ لها ابتسامَةً ضَعيفَةً لأُخَفِّفَ عنهما الشُّعورَ بالذَّنْبِ، بينما أنا مَشْغولَةٌ بالتَفْكيرِ بما سوفَ يُصيبُنا من عِقابٍ.

في البَيْتِ، بعد أن بَدَّلْنا ثِيابَنا وَصَلَّيْنا المَغْرِبَ والعِشاءَ، جَلَسْنا على مائِدَةِ العَشاءِ مع أَبَوَيْنا.

بدأتْ أُمي بالكلامِ، قالتْ: "ماذا كُنْتُما تَفْعَلانِ في بيتِ عمِّ محمود"؟

فانبَرَيْتُ أقولُ: "كنا نُساعِدُ شَريف في العِنايَةِ بأَخَوَيْهِ الصَغيرَيْنِ".

وتابعَ حُسين: "أُم شَريف كانت مُضْطَرَةَ لزِيارَةِ عمِّ محمودٍ في المُسْتَشْفى".

قالَ أبي: "إذا كُنْتُما تقومانِ بعَمَلٍ خَيْرِيٍ كَريمٍ مثلِ هذا، لماذا تَسَلَّلْتُما وأَخْفَيْتُما الأَمْرَ عنا".

أسرعتُ أنا بالقولِ: "خِفْنا أن تَرْفُضا"..

قالت أُمي: "لو رَفَضْنا، لكانَ واجِبُكُما أن تُطيعا.. فنحنُ لا نَرْفُضُ عملَ الخَيْرِ إلا إذا كان عندنا سَبَبٌ وَجيهٌ".

وقالَ أبي: "المَفْروضُ أن تُعاقَبا لإخْفاءِ الأمرِ عنا، ولِتَسَلُّلِكُما دونَ إذْنٍ منا.. لكننا سَنَتَغاضَى هذه المَرَّةِ عن خَطَئِكُما بسببِ حُسنِ نِيَّتِكُما".

فقزْتُ من مَكاني وأَسْرَعْتُ باحْتِضانِ أبي وأمي، وتَقْبيلِهِا، وأَشَرْتُ إِشارَةً سَريعَةً لأَخي حُسين، فَقامَ هو الآخَرُ واحْتَضَنَ أبي وأمي وقبلهما.. وشَكَرَهُما.

وهكذا انتهى يومُ الخَميسِ دونَ عِقابٍ.

وفي صباحِ اليومِ التالي، قبلَ صلاةِ الجُمُعَةِ، دقَّ جرسُ البابِ، وفَتَحَ أَبي فوجَدَ أمامَهُ شَريفًا ابن عم محمودٍ يَقِفُ مُبْتَسِمًا، يحملُ أختَهُ الطِّفْلَةَ على ذِراعِهِ، ويُمْسِكُ يدَ أَخيهِ الصَّغيرِ الذي كانَ يمشي بِصُعوبَةٍ..

قالَ شَريف: "صباحُ الخَيْرِ يا عمِّ عبدَ اللهِ.. قالتْ لنا مَنالُ أن نأتِيَ لِقَضاءِ اليومِ معهُما هُنا بدلاً من أن يَأْتِيا لِمُساعَدَتِنا في بَيْتِنا".

أَفْسَحَ أبي لهم الطَّريقَ، وأَدْخَلَهُم إلى غُرْفَتِنا ونادانا لِنُرَحِّبَ بهم..

أَمْضَينا ذلك اليوم في العنايَةِ بالصَغيرَيْنِ واللَّعِبِ معهما. وأقامتْ لنا أُمّي بعضَ المُسابَقاتِ في مَوادِّ دُروسِنا، وذَهَبَ شَريفٌ

لصلاةِ الجُمُعَةِ مع أَبي وأَخي حُسينٍ.. وتَغَدَّيْنا معًا ودَعَوْنا معنا نَهْلَةَ وطارقًا.

أَظُنُّ أن ذلك اليومَ كانَ من أَفْضَلِ أيامِ أُمّي.. فقد حَرَصْنا طولَ الوقتِ على البَقاءِ في غُرْفَتِنا حتى لا نَتَسَبَّبَ في أي فَوْضى أو إزعاجٍ.. وأنْ نقومَ بكلِّ التِزاماتِنا دونَ أن يُذَكِّرَنا بها أبي أو أمي.. وأن نُؤَدِّيَ كلَّ الأعمالِ المطلوبَةِ منا بِسُرْعَةٍ ودِقَّةٍ، وكنا نُعيدُ تَرْتيبَ ما نَسْتَعْمِلُهُ من ألعابٍ وأدواتٍ. وأن تَبْقَى غُرْفَتُنا نظيفَةً ومُرَتَّبَةً، وكنا نأخُذُ الصَّغيرَيْنِ للمَطْبَخِ كُلما أرادا الأَكلَ أو الشُّرْبَ.. وهكذا مرَّ اليومُ بسلامٍ ودونَ أَضْرارٍ تُذْكَرُ.

في المساءِ، عادتْ أُمُّ شَريفٍ مِنَ المُسْتَشْفَى إلى بَيتْنا لتأخُذَ أَبْناءَها، وأَخْبَرَتْ أُمّي أنَّ عمَّ محمود سوفَ يُغادِرُ المُسْتَشْفى في صباحِ اليومِ التالي.. وهكذا انتهى مشروعُنا الخَيْرِيُّ، لكنَّ شَريفٍ مازالَ يأتي للَّعِبِ معنا في مَدْخَلِ العمارَةِ أو في الحَديقَةِ المُجاورَةِ لبَيْتِنا.